**لكلمات المفتاحية :** العلوم الطبيعية،العلوم الانسانية،المنهج العلمي،الجوانب الروحية.

**المقدمة**

إن التقييم العلمي و المعرفي للإنسان أتاح له فرصة السيطرة على العالم و مكنه من فهم ألغازه، فابتداء من القرن 18 عرف العالم ثورات علمية بفضل اعتماده المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، فكانت لهذه الثورات اثر واضح في تقدم الإنسانية. و لكن فيما يخص العلوم الإنسانية فانها تتعرض اليوم لمراجعات نقدية مكثفة مطروحة كضرورة ملحة وحيوية للحفاظ على الفعالية الإجرائية لهذه العلوم. إذ أن استمراريتها مرتبطة بالتعديلات المنهجية والفكرية التي يمكن لهذه المراجعات إدخالها لتحديث هذه العلوم وتخليصها من شوائب تكاد تقضي على فعاليتها.

و لعل الإشكاليات الميتودولوجية التي تعترض العلوم الإنسانية نابعة أساسا من خصوصية الموضوع وهو الظاهرة الإنسانية و كذا من البحث عن المنهج المناسب الذي يجب اعتماده في دراسة الظاهرة الإنسانية؛

**فهل بالإمكان تقديم معرفة** **علمية دقيقة بصدد هذا** **الكائن الغامض المتغير الراغب، المتخيل، المعقد،** **المتقلب، المتداخل الأبعاد …. و الذي يسمى الإنسان.بالاعتماد على المنهج التجريبي الوضعي ؟ و هل تصلح المناهج العلمية الوضعية** **للتطبيق** **حرفيا على الظاهرة الإنسانية أم يجب تعديلها و تكييفها مع خصوصياتها؟ أم** **ينبغي تغييرها بأخرى أصيلة خاصة بالإنسان؟**

**أولا: التأصيل التاريخي لاشكالية المنهج العلمي في العلوم الانسانية**

تعتبر [إشكالية](http://www.arabgeographers.net/vb/forums/arab36/) [المنهج](http://www.arabgeographers.net/vb/forums/arab36/) العلمي في [العلوم](http://www.arabgeographers.net/vb/forums/arab36/) الإنسانية من بين أهم الاشكاليات الابستيمولوجية المعاصرة التي لها تاريخ طويل في الفكر الأوروبي – مقارنة بالفكر العربي- حيث عاش المجتمع هذه الإشكالية منذ العصور المظلمة (عصر محاربة الكنيسة للعلم) إلى أن تمكن العلم بمناهجه وتجاربه من ان يثبت جدارته ويتغلب على الأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية التي جعلت أوروبا تعيش زمناً طويلا من الجهل والظلام .

فقد استطاع الإنسان التفكير بطريقة علمية مكنته من أن يصنع ويخترع في ميادين مختلفة و ذلك بالاعتماد على مناهج تساعده في ذلك،اذ يعتقد الكثير من العلماء ان المنهج العلمي هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة. من شانه ان يعصم الباحث – قدر الامكان – من الوقوع في الخطأ. فهو الطريقة الأقصر والأسلم للوصول إلى الهدف المنشود (1).

الا أن العلم في الواقع ليس إلا نشاطا إنسانيا يتأثر في بناء مناهجه وتوجيه بحوثه بما تتأثر به النشاطات الانسانية الأخرى،فالعلم يتأثر بالديناميكيات التي يدور في نطاقها عمل الباحثين و العلماء.

وقد أسهم “جيروم رافيتز “**Jerome Ravetz** (1929-) في مقاله الهام عن “تاريخ العلم”  في تبديد وهم الصدق المطلق للعلم والمنهج العلمي، حين بيـن أن فكرة “العلم” بالصورة التي وصلتنا اليوم  ليست إلا واحدة فقط من بين عدد من التصورات الممكنة للعلم ، وأن هذه الصورة المحددة التي نمارسها اليوم لم تكن إلا نتاجا لأوضاع تاريخية بعينها تتصل بالظروف التي أحاطت في أوروبا بنشأة وتطور العلم في العصر الحديث وخصوصا ذلك الصراع المرير الذي احتدم بين الكنيسة ورجال العلم الأوروبي الوليد ، وأننا ينبغي أن ننظر إلى العلم في صورته المعروفة لنا اليوم على أنه أحد مراحل عملية مستمرة من التطور.(2)

لا أحد يشك في أن العلوم الإنسانية في الغرب المعاصر تعاني مشاكل حادة، سواء على مستوى المنهج أو فيما يتعلق بالبناء النظري. ويرى الكثير من العلماء أن هذه المشاكل المنهجية والنظرية مرتبطة بطبيعة موضوع العلوم الإنسانية من جهة، وبالمؤثرات الفلسفية والإيديولوجية التي رافقت تلك العلوم في تطورها ومسيرتها التاريخية. ثم إن هذه الفلسفات والإيديولوجيات التي صبغت العلوم الإنسانية بصبغتها، تمثل النتاج الفكري والفلسفي الذي تمخض عن قرون من الصراع بين الفكر اللاهوتي الكنسي والفكر المتحرر.

ولما دخل القرن الثامن عشر الميلادي، كانت الثقافة الأوربية قد قطعت أعظم الأشواط في التحرر من هيمنة الفكر اللاهوتي الكنسي. ورفع فلاسفة التنوير شعار العقل، وآمنوا بقدرته على فهم الطبيعة ومحاولة إدراك أسرارها باستخدام النظر والمشاهدة وإجراء التجارب بدلا من الاقتصار على القياس الاستنباطي، فأخضعوا المعارف والعلوم للدراسة العقلية المتسلحة بالنقد والتحليل.

كما تميز هذا القرن بثورة علمية كبرى في مختلف ميادين العلم على أيدي ليوناردو دافنشى وكوبرنيكوس وجاليليو وكبلر، وتميز ايضا بثورة موازية في مناهج البحث العلمي والفلسفي على أيدي فرانسيس بيكون (1561-1626) **Francis Bacon** وقد نتج من عصارة جهود هؤلاء العلماء التوصل إلى نظرة جديدة واقعية للعالم الذي نعيش فيه.نظرة تبنت مصدرا آخر للمعرفة يعتمد على الخبرة الانسانية و الملاحظة و الوقائع التجريبية ، و في هذا يقول ألبرت ليفي أن “عصر النهضة قد أعلن التمرد على حكم الدين، ومن هنا كانت الثورة ضد الكنيسة وضد السلطة وضد الفكر المدرسي المسيحي، و ضد أرسطو”. (3)

يتضح لنا مما سبق ان السمة المميزة في تاريخ الفكر الغربي القديم  هي وجود صراع بين العلم والدين وقد انتهى هذا الصراع بإقصاء الدين والتفكير الديني عن مجالات الحياة وحصره داخل جدران المعابد وطرده من مجال النظر العقلي .

ومع نهاية القرن 18، بزغت العلمانية كمذهب قوي في وجه الكنيسة الكاثوليكية المدعمة بالانتقادات الفلسفية والعلمية. كما توج هذا الوضع بأكبر ثورة اجتماعية وثقافية في تاريخ الغرب؛ وهي الثورة الفرنسية،التي شكلت أعظم سند لقيام المنهج الوضعي، وذلك على يد أوجست كونت (1798-1857)  **Auguste Comte**، في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.اذ كان يتخذ من قانون الجاذبية الذي قال به نيوتن، نموذجا لما يجب أن يكون عليه التفكير الوضعي.(4)

فهذه الفلسفة كانت تعتقد اعتقادا جازما بأن العقل والعلم هما اللذان ينبغي أن يقودا البشرية نحو الحضارة والتقدم والرقي. وبالتالي فينبغي أن يحلا محل اللاهوت المسيحي التقليدي الذي أدى الى التواكل، وتأخر المجتمع على كافة الأصعدة والمستويات. وهكذا قامت الفلسفة الوضعية في وجه كل تفكير يخرج عن دائرة الحس، سواء كان تفكيرا دينيا،او فلسفيا او عقليا. فهي لا ترى المنطق السليم سوى في المعرفة الواقعية المنتزعة من الحس .

وفي الواقع إن اوجست كونت نقل المنهجية التجريبية من ساحة العلوم الفيزيائية لكي يطبقها على المجتمع نفسه ومختلف الظواهر الإنسانية. اذ يقول مارسيل موس (1872-1950) **Marcel Mauss**: ” السوسيولوجيا هي كلمة وضعها أوجست كونت ليشير بها إلى العلم الذي يعنى بدراسة المجتمعات…وكل ما تصادر عليه السوسيولوجيا هو ببساطة، اعتبار أن ما يسمى بالوقائع الاجتماعية هي وقائع موجودة في الطبيعة.أي إنها خاضعة لمبدأ النظام والحتمية الكونيين، وأنها، بالتالي، وقائع تنطوي على معقولية.(5)”

وهنا تكمن إحدى الميزات الأساسية للفلسفة الوضعية. فهي فلسفة علمية دقيقة لا تؤمن إلا بالحسابات والمعادلات الرياضية والقوانين الفيزيائية. إنها فلسفة مهووسة باكتشاف القوانين، سواء أكانت القوانين التي تتحكم بالظواهر الطبيعية والفيزيائية، أو القوانين التي تتحكم بتصرفات البشر وعقليتهم.. وكان اوجست كونت يعتقد أن البشرية كلها سائرة لا محالة باتجاه المرحلة الوضعية أو العلمية المحضة. ولكنها لن تتوصل إليها في نفس اللحظة. فالمجتمعات الأوروبية أو الغربية سوف تسبق غيرها إلى ذلك.

يقول أوجست كونت: “إننا ما دمنا نفكر بمنطق وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين. فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية، يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير.  (6)

فالوضعية تقوم على تأكيدها وحدة المنهج في التفكير بغض النظر عن الموضوع المدروس،و هي تريد بذلك سد الطريق أمام ذلك الانفصام الذي كان يعاني منه جيل ما قبل الوضعية حينما كان يستخدم المنهج الوضعي في معالجة العلوم الطبيعية و المنهج اللاهوتي في العلوم الإنسانية، وفي هذا يقول سان سيمون (1760-1825) Saint-Simon: “إن القدرة العلمية الوضعية هي نفس ما يجب أن يحل محل السلطة الروحية، ففي العصر الذي كانت فيه كل معارفنا الشخصية حدسية وميتفايزيقية بصفة أساسية كان من الطبيعي أن  تكون إدارة المجتمع فيما يخص شؤونه الروحية في يد السلطة اللاهوتية، مادام اللاهوتيون آنذاك هم الميتافيزيقيين الموسوعيين الوحيدين. وبالمقابل عندما تصبح كل أجزاء معارفنا قائمة على أساس الملاحظة، فإن إدارة الشؤون الروحية يجب أن تستند إلى القدرة العلمية باعتبارها طبعا متفوقة على اللاهوتية والميتافيزيقية.”(7) فقد خضع مفكرو هذا العصر وفلاسفته لسيطرة نموذج فيزياء نيوتن القائم على التجربة، وتم تعميم أسس المنهج الوضعي ليشمل العلوم الإنسانية.(8)